

صفحة من تاريخ الخلافة العباسية
في ظل دولة المهاليك

صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك
(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)

دكتور محمد زياك خفانم
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٧٨

دار الثقافة للنشر
والمساهمة
للطباعة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حفل عصر سلاطين المماليك بمختلف ألوان النشاط السياسى ، وإستخدام المماليك سواء كانوا سلاطين أم أمراء أساليب سياسية مختلفة للوصول إلى أهدافهم . وكانت مسألة الخلافة من بين تلك الأساليب التى أجادوا إستخدامها . وإذا كان كثير من الباحثين يركزون على دبلوماسية السلطان الظاهر بيبرس وتفكيره فى إتخاذ الخلافة العباسية — بعد إحيائها فى القاهرة — ورقة راجحة لثبوت دعائم حكمه والضرب بها على أيدي ورقاب الخارجين عن طاعته ، فإن المماليك البرجية كذلك أحسنوا إستخدام هذه اللعبة - الخلافة - فى الوصول إلى أهدافهم .

وفى هذه الدراسة حاولت إيضاح دبلوماسية بعض أمراء البرجية وتلاعبهم بالخلافة العباسية للوصول إلى حكم البلاد منقهرين ما يتمتع به الحلفاء العباسيون من مركز قوى فى نفوس المسلمين بصفةهم « أمراء

المؤمنين « دون النظر إلى ما يقبم هذا التلاعب من أثر سييء على مركز
الخلافة العباسية نفسها .

وأسأل الله التوفيق ؟

{ ٢١ المحرم ١٣٩٨
القاهرة في { أول يناير ١٩٧٨

حامد زيان غانم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سقوط الخلافة العباسية ببغداد

المعروف أن الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة منذ عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) انقسموا إلى قسمين ، قسم أمتاز بالقوة والمهارة في معالجة الأمور ، وهؤلاء هم خلفاء العصر العباس الأول الممتد من عام ١٣٢هـ إلى عام ٢٣٢هـ ، وقسم ثان كان الضعف هو السمة المميزة الغالبة عليه ، وهو ذلك القسم الذي أطلق عليه إسم العصر العباسي الثاني .

وبقدر ما كان خلفاء العصر العباسي الأول — أمثال أبي العباس السفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم — من قوة ومهابة وعظمة في قلوب المعاصرين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، بقدر ما كان خلفاء العصر العباسي الثاني من ضعف ومذلة وخنوع لقوة كبار القادة وما أسوا فيه من مهانة من أمثال المستعين والمعتز والمعتد والمقتدر وغيرهم .

والواقع أن ما ألمس فيه خلفاء العصر العباسي الثاني من ضعف

ظاهر ، وما صاحبه من تحسّم كبار القادة والوزراء في شخصياتهم أدى إلى زوال تلك الخلافة نهائياً .

وينطبق هذا القول تماماً على ما حدث للخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠ — ٨٦٥٦) وما آل إليه أمره في النهاية بالقتل على يد القطار لهو خير دليل على ذلك القول . فقد تولى وزارة المستعصم بالله الوزير أبو طالب محمد بن أحمد مؤيد الدين بن العلقمي ، وكان كما ذكر أبو المحاسن رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين^(١) .

ويذكر المؤرخون عدة أسباب لحقد ابن العلقمي على الخلافة العباسية نشير إليها فيما يلي :

يرى ابن شاكر الكتبي أن سبب حقد ابن العلقمي على الخلافة العباسية هو أنه وقع بينه وبين الدوادار^(٢) خلافاً ، وكان الدوادار سنياً

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٧ ص ٤٧ .

(٢) الدوادار هو الشخص الذي يقوم بحمل دواة السلطان أو الخليفة ،

ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الشكاوى إليه . (المقرئ : الخطط ج ٣

ص ٦٥) .

مقيماليا ، ووقف ابن الخليفة المستعصم بالله في جانب الدوادار ، فأدى هذا هذا الخلاف الذى انتصر فيه الدوادار على ابن العلقمى إلى حقد ابن العلقمى على الدوادار والخلافة العباسية جميعا ، وأدى إلى « سعيه فى دمار الاسلام وخراب بغداد » ، وذلك نتيجة ما أصابه من ضعف بينما قوى شأن الدوادار^(١) ويضيف ابن طباطبا سببا آخر فى إشغال نار الحقد فى قلب ابن العلقمى وهو أن خواص الخليفة العباسى كرهوا ابن العلقمى وحسدوه ، فوقف ابن العلقمى منهم ومن الخلافة العباسية موقفا معاديا^(٢) ، أما أبو الفدا فيذكر لنا سببا آخر فى حقد ابن العلقمى على العباسيين ألا وهو : أنه عندما اشتعلت الفتنة بين السنة والشيعة ببغداد ، أمر أبو بكر ابن الخليفة المستعصم بالله وركن الدين الدوادار ، الجند بنهب منازل الشيعة « وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش » فغظم ذلك على ابن العلقمى — وكان شيعيا — « وكاتب القتر وأطمعهم فى بغداد^(٣) » .

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٤٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٣ .

ولم يلبث ابن العلقمى أن كتم حقه هذا في نفسه في حين أظهر للخليفة المستعصم كل حب وود ، وأخذ يدبر مؤامرة من أجل الإطاحة بالخلافة العباسية ، وساعده في ذلك ضعف الخليفة العباسي المستعصم بالله واستكانته ، وبدأ ابن العلقمى في تدبير الفتن بين السنة والشيعة وإشعال نارها ببغداد ، حتى كانت حرباً بين الطرفين . وفي نفس الوقت نصح الخليفة المستعصم بضرورة تسريح ما لديه من جند وتوفير الأموال التي تنفق عليهم وإرسالها إلى هولاكو ، والإكفاء بمعاذدة القطار ومحالفتهم ^(١) ، وقد وافقه الخليفة المستعصم على كل هذه الآراء وذلك لأن المستعصم كان كما وصفه المصادر « خلياً من الرأي والتدبير » ^(٢) .

وفي نفس الوقت كاتب الوزير ابن العلقمى القطار سراً وأرسل اليهم عدة رسل يحثهم فيها على غزو العراق وأخذ بغداد في مقابل أن يكون هو نائبهم في بغداد ، فانتهمز القطار هذه الفرصة ووعدوا الوزير ابن العلقمى بما أراد . وقد أحاط ابن العلقمى بحركاته هذه بالسرية التامة ، كما أنه حذر على الخليفة بحيث جعله لا يعلم شيء عن تحركات القطار . وكان ابن العلقمى يتسلم المكاتبات من كافة الأمراء ويقول الرد عليها بما يشتهي ، لذلك لم تصل إلى أسماع الخليفة المستعصم بالله تحذيرات الأمير لؤلؤ صاحب الموصل ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤٨ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٤ :

وتاج الدين بن صلاحيا نائب الخليفة بإربل، اللذان أرسلتا كتباً إلى الخليفة يحذرانه فيها من القطار الذين بدأوا في الزحف نحو بغداد، واسكن الخليفة المستعصم كان « لا يتحرك ولا يستيقظ » على قول أبي الحسن .

وأخيراً عندما تحقق الخليفة المستعصم من زحف القطار نحو بغداد، رأى أن يرسل اليهم رسولا من قبله يعرض عليهم الأموال الكثيرة، كما أرسل مائة رجل من قبله ليعاونوا عيوناً له ترصد تحركات القطار .

غير أن القطار لم يلبثوا أن القوا القبض على أولئك الرجال، وواصلوا الزحف نحو العراق . وعندما اقتربوا من بغداد خرج اليهم جيش الخليفة وعلى رأسه ركن الدين الدوادار وكانت الهزيمة من نصيب جيش بغداد، وأخذت سيوفهم، وغرق بعضهم في نهر دجلة، وهرب الباقون ^(١) .

ثم تقدم هولاكو نحو بغداد وضرب عليها الحصار. ويبدو أن الوزير ابن العلقمي أراد أن يمضي في شوط الخيانة إلى آخره، فهدأ من روع الخليفة المستعصم وأشار عليه بمصانعة القطار . وخرج ابن العلقمي بنفسه لمقابلة القطار وطمع اتفاقه معهم « وتوثق لنفسه »، ثم رجع إلى الخليفة ليؤهمه بأن هولاكو يرغب في أن يزوج ابنته من ابن الخليفة، ويبقى الخليفة في منصب الخلافة، على أن تكون السلطة له، كما كان الحال مع أجداد

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج ٢ ص ٣١٣، أبو الحسن :

النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٤٨ — ٤٩ .

الخليفة السابقين وسلاطين السلاجقة . وأشار على الخليفة بقبول هذا العرض حتى يعجنب الحرب مع القطار ، وفي نفس الوقت نصبح ابن العلقمي الخليفة المستعصم بالخروج لمقابلة هولاكو . ولم يسم الخليفة المستعصم إلا أن يسم نصائح ابن العلقمي دون أن يدري أنه يذهب إلى حتفه بنفسه ، ووافق المستعصم كذلك على كل الاقتراحات السابقة ، وخرج في جمع من أعيانه وأقاربه وحاشيته .

ولم يخرج هولاكو لاستقبال الخليفة ولم يجتمع به ولم يرحب بقدمه ، كما كان يتوقع المستعصم ، وإنما أنزله بخيمة أعدت له ، وفرضت عليه الحراسة . وفي نفس الوقت أشار هولاكو على الوزير ابن العلقمي باحضار فقهاء وأعيان بغداد اليه ، فأرسل اليهم ابن العلقمي يخبرهم بضرورة حضور عقد قران ابن الخليفة ، وبالفعل خرج عدد وافر من فقهاء وعلماء وأعيان بغداد متجهين إلى هولاكو ، الذي أمر بضرب أعناقهم عندما وصلوا إليه . وهنا بدأت المؤامرة التي دبرها ابن العلقمي وهولاكو تنكشف ، وتلا ذلك عبور القطار نهر دجلة حيث دخلت جيوشهم بغداد لقتل أهلها دون التفريق بين صبي أو امرأة أو شيخ ، أما من بقي من القتل فقد أسر ، واستمر القتل والنهب والسبي ببغداد قرابة ثمانية وثلاثين يوماً ، وبعدها نودي بالأمان ، بعد أن بلغ عدد القتلى ببغداد حوالي ثمانمائة ألف قتيل .

أما الخليفة المستعصم وحاشيته وأهل بيته ، فقد قضى عليهم هولاكو

جميعها ، وتضاربت الأقوال في كيفية قتل هولاكو المستعصم (قتل في ٢٠ محرم عام ٦٥٦ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٨ م) فمنهم من قال انه توفي خنقا ، ومنهم من قل غُسم في بساط ^(١) وعلى هذا النحو انتهت الخلافة العباسية ، وصار العالم الاسلامي ولأول مرة بلا خليفة ^(٢) .

أما ابن العلقمي فتمحقق له ما أراد ، حيث إنتهى أمر الخلافة العباسية السفينة ، ونولى ابن العلقمي حكم بغداد نيابة عن السلطان هولاكو ، مكافأة له على خيانتة للخليفة العباسي ١١ .

غير أن ابن طباطبا وهو المؤرخ المتوفى عام ٨٧٠ هـ (١٣٠٩ م) ومعنى ذلك أنه كان معاصرا لأحداث تلك الفترة وشاهد عيانها برأ ابن العلقمي من تلك القهم التي لصقت به ومدحه مدحا كثيرا ، واستند ابن طباطبا في دفاعه عن ابن العلقمي على ثقة هولاكو فيه وتسليم بغداد له عقب قتل الخليفة فيقول ابن طباطبا :

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٤ ،

المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٩ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٧ ص ٤٧ — ٥٠ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ،

Muir : The Caliphate its rise, decline and fall, p.586.

« فإن السلطان هولاءكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلاد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه ، فلو كان قد خامر - أي ابن العلقمي - على الخليفة ، لما وقع الوثوق فيه^(١) » . غير أن الحجة التي أتى بها ابن طباطبا إنما هي أكبر دليل على خيائته ، فهي تؤكّد لنا حقيقة الاتفاق السابق بين هولاءكو من جهة وابن العلقمي من جهة أخرى .

ويبدو أن يد القدر لم تمهل ابن العلقمي كثيراً ليعتصم بحكم بغداد نيابة عن القنار ، إذ لم لم يلبث أن توفي بعد قليل في جادى الأولى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وفق رواية ابن طباطبا^(٢) ، أوفى أوائل عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) وفق رواية ابن شاذكر الكنتي^(٣) « غمّاً وغيظاً » ، وذلك لأنه عومل معاملة سيئة جداً من جانب القنار^(٤) ، وقد روى ابن شاذكر الكنتي رواية تفيد ما وقع فيه ابن العلقمي من مذلة وهوان تذكرها فيما يلي :

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٩ .

(٣) ابن شاذكر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٣ .

(٤) ابن شاذكر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٣ ،

ابن المحاسن : النجوم ، ج ٧ ص ٥٠ .

« حكى انه — أى ابن العلقمى — كان جالسا بالديوان ، فدخل عليه بعض القطار ، ممن ليس له وجاهه ، راكبا فرسه ، فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير ، وخاطبه بما أراد ، وبالفرس على البساط ، وأصاب الرشاش ثياب الوزير ، وهو صابر لهذا الهوان ، يظهر قوة النفس ، وأنه بلغ مراده !! » .

وعندما أحس بعض أصحاب ابن العلقمى من أهل بغداد ، بما أصابه من مذلة وهوان قالوا له : يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه جميعه ، وحيت الشيعة ، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقا لا تحصى ، وارتكبت الفواحش مع نسائهم ، فقال : بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك ! « (١) .

أما عن شخصية ابن العلقمى هذا فقد ذكر عنه المؤرخون انه كان لبيبا كريما وقورا ، محبا للرياسة ، كثير التعمل ، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة ، خبيرا بأدوات السياسة ، يحب أهل الأدب ويقرب أهل العلم ، وذلك لأنه اشتغل في مستهل حياته بالأدب (٢) ، كما سمع الحديث (٣) ،

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ٢ ص ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٨ ،

(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ٢ ص ٣١٤ .

وكان رافضياً خبيثاً^(١). ومن أموره الخبيثة تلك الحيلة التي اتبعها في مراسلة القتيار عندما « أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليفاً وكتب ما أرادته عليه بالإبر ، ونفض عليه السكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب ، فجهره وقال له : إذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه ، وكان في آخر الكلام « اقطعوا الورقة » فضربت عنقه . وهذا غاية في المكر والخزي »^(٢).

وعلى أية حال فقد انتهت الخلافة العباسية ببغداد نهاية مؤسفة على يد جحافل القتيار وبمساعدة ابن العلقمي ، تلك الخلافة التي استمرت قائمة أكثر من أربعة قرون ما بين قوة وضعف ، ولكن حتى في أيام ضعفها كان الخليفة واسمه له وقع كبير في نفوس المسلمين .

الظاهر بيبرس وأحياء الخلافة العباسية بالقاهرة :

أحسن السلاطين الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) عقب انفراده بحكم مصر أنه في حاجة إلى تأييد شرعي للملكه خاصة وأن كثيراً من الأعداء ظلوا متربصين به ، فهؤلاء بقايا ملوك البيت ببلاد الشام وعلى رأسهم الملك الفاصر يوسف صاحب دمشق ، الذي أخذ يعمل من

(١) أبو المحاسن : النجوم ، > ٧ ص ٤٧ .

(٢) ابن شاكر السكتي : فوات الوفيات ، > ٢ ص ٣١٥ .

أجل انقزاع حكم مصر من يد المماليك ، وما لبث يذكر المماليك بأصلهم
الوضيع وأنهم ما إلا « مماليك قد مسهم الرق » ، ومن جهة أخرى ظل
التمار الذين اتخذوا بغداد مركزاً لهم ، ظلوا مهددين حكم بيبرس في مصر
تهديداً كبيراً ، ومن جهة ثالثة لم يكن المماليك قوة شرعية يستندون اليها
في حكم البلاد ، لذلك بحثوا عن قوة تحميهم وتمنعهم حكماً شرعياً للبلاد ،
ففكر السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية ، لتكون تلك
القوة التي يستند اليها حكمه في مصر بالإضافة إلى ذلك فجامى حتى الخلافة
لا بد وأن يكون هو صاحب السيادة العليا على ما عداه من ملوك وحكام ،
وهذا ما تمناه بيبرس ، ويعطيه أيضاً الحق في الاشراف على الحرمين
الشريفيين ، بالإضافة إلى مكانة مرموقة في نظر الحكام المسلمين ^(١) . هذه
الأسباب وغيرها هي التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس على الاقدام لإحياء
الخلافة العباسية بالقاهرة ^(٢) .

على أنه من الجدير بالذكر ان السلطان الظاهر بيبرس لم يكن هو
أول من فكر في أن تكون مصر هي مقر الخلافة ، فقد سبقه إلى ذلك
الأمير أحمد بن طولون عندما رحب بالخليفة المعتمد أئمناء الخلف الذي
حدث بين المعتمد وأخيه الموفق طلحه عام ٥٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) غير أن مشروع

(١) Demombynes : Muslim Institutions, p 111, 112.

(٢) على ابراهيم حسن : دراسات في عصر المماليك البحرية ، ص ٢٢١ - ٢٢٢

أحمد بن طولون لم يحقق نتيجة قبض الموفق على المعتمد والحجر عليه بمقداد. وتجدد أمل حكام مصر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر زمن محمد بن طغج الأخشيدي عندما تأزم الموقف بين المقتدى وبين الحمدانيين والأتراك عام ٣٣٣هـ (٩٤٤م). كذلك رحب السلطان المظفر قطز بالأمير أبي العباس أحمد وهو أحد أمراء البيت العباسي الفارين من وجه القتار عقب موقعة عين جالوت وأشار على أصحابه بأنه « إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله^(١) ». كما أنه يقال أن الملك الفاضل يوسف صاحب دمشق رأى هو الآخر ضرورة إحياء الخلافة العباسية بدمشق حتى يتسنى له بسط سلطانه على بقية الممالك الإسلامية^(٢).

غير أن السلطان الظاهر بيبرس كان هو أول من نفذ فكرة إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة تنفيذا عمليا . فعندما أرسل إليه بعض أمراء بلاد الشام يخبروه بوصول رجال إلى دمشق يسمى أحمد ابن الامام الظاهر ابن الامام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة ، سارع السلطان

(١) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٩٣ وعن شخصية أبي العباس أحمد انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٩٢ — ٩٣ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٧ — ٣١٨ .

الظاهر بيبرس بالكتابة إلى هؤلاء الأمراء بضرورة التحفظ على هذا الأمير
العباسي وإرساله فوراً صحبة بعض الحرس إلى مصر .

وعندما إقترب الأمير أحمد العباسي من مصر خرج للقائه الظاهر
بيبرس بنفسه ومعه الوزير بهاء الدين وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت
الأعز وبعض الأمراء ، كذلك خرج في إستقباله اليهود حاملين التوراه
والنصارى حاملين الانجيل وساروا جميعاً إلى المطرية لإستقباله . ولم يلبث
أن ترجل الظاهر بيبرس حين تقابل مع الخليفة الجديد ، وعانقه ، وسار
الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس وبصحبة السلطان الظاهر بيبرس
حتى وصلا إلى قلعة الجبل (عام ٦٥٩ هـ ^(١)) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن دعى إلى عقد مجلساً عاماً حضره
قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والقضاة والعلماء والأمراء وسائر
أرباب الدولة ليشهدوا بصحة نسب الخليفة الجديد ، وشهد في هذا الاجتماع
العربان الذين حضروا من دمشق صحبة الخليفة الجديد بأن نسبه يتصل
بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر بذلك بعض القضاة والفقهاء ، وقبل قاضى

(١) ابن خلدون : المعبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ ،

المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٤٨ ،

Muir : The Caliphate, P 581.

القضاء هذه الشهادة^(١) . فقام السلطان الظاهر بيبرس وبايعه على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها ، وتبعه القضاء والعلماء ، ثم أخذت له البيعة بعد ذلك من سائر الناس ، كما نقشت السكة باسمه وأمر بالدعاء له في الخطبة ولقب بالمستنصر بالله ، وبذلك تم إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة^(٢) ، بعد أن ظل العالم الإسلامي بلا خليفة لمدة ثلاث سنوات ونصف^(٣) .

ولإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد حقق هدفه في إحياء الخلافة العباسية على نحو ما ذكرنا ، فإنه بقي أن يعنى ثمرة هذا الجهد وهو تقليد الخليفة العباسي له بحكم البلاد . وتم ذلك فعلا في الرابع من شعبان عام ٥٦٥٩ هـ عندما خرج جمع كبير ضم الخليفة والسلطان وقاضى القضاء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥ .

يبدو أن أبا الفدا شك في صحة نسب هذا فإشار إلى أنه في هذه السنة وقدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعههم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله (المختصر ج ٣ ص ٢١٢) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٥٤٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٥١ .

والقصاة والامراء ، حيث أقيمت لهم خيمة كبيرة بالمطرية وصعد إلى المنبر صاحب ديوان الانشا فخر الدين بن لقمان وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس ، كما خلع الخليفة المستنصر خلعة السلطنة على السلطان الظاهر بيبرس وهى عبارة عن جبه بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها السلطان الظاهر بيبرس ، وإتجه الموكب الذى ضم السلطان ثم الخليفة بينما حمل شهاب الدين التقليد على رأسه فكان موكبا حافلا^(١) .

وإستمر الخليفة المستنصر بالله مقيما بالقلمة فترة من الوقت حتى إستقر الأمر على ضرورة إرساله إلى بغداد لإحياء الخلافة العباسية بها ،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ص ١١٢ - ١١٦ ،

المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٧ ،

ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠١ .

يشير المقريزى إلى أنه من العادات التى سادت مصر و أن السلطان من ملوك بنى أيوب ومن قام بعدهم من ملوك الترك — أى المماليك — لا بد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها ركبا والوزين بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبته له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه وجميع الامراء ورجال المساكر مشاة بين يديه ، (الخطط ج ٢ ص ١٠٦ بولاق)

كما كانت من قبل^(١) وكان أن تجهز الخليفة للسير إلى بغداد وبصحبة عدد قليل من الفرسان^(٢) ، غير أن القطار لم يلبثوا أن تعقبوا خطواته وقتلوه عام ١٢٦٠ هـ / ١٢٦٢ م^(٣) .

وعندما علم الظاهر بيبرس بما حدث للخليفة المستنصر تأسف لقتله ، وأخذ في طلب أمير عباسي جديد ليحل محل الخليفة المقتول^(٤) .

(١) ابن خلدون : المعبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ .
يرى بعض الباحثين أن بيبرس خشي من بقاء الخليفة إلى جواره بالقاهرة ، مما يؤدي إلى التفاف الأهالي حول الخليفة مما يتعرض معه منصب بيبرس للخطر لذلك فكر في أبعاده عن القاهرة . انظر :

Arnold : The Caliphate, P 581.

(٢) يشير المقرئ إلى أن الظاهر بيبرس كان سيرسل صحبة الخليفة عدد كبير من الجنود ، لكن أحد اصدقاء بيبرس نصحه بالآلا يفعل ذلك « فإن الخليفة إذا لم يستقر أمره ببغداد فازعك وأخرجك من مصر » فخشي بيبرس عاقبة ذلك ، وعمد إلى تقليل عدد الجنود المصاحبين للخليفة أنظر : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) ابن خلدون : المعبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ ،
المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ ،

Muir : The Caliphate, P 581.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٢١٣ ،
ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٢ .

وكان أن وصل إلى مصر عام ٥٦٦١ / ١٢٦٣م الأمير أبو العباس أحمد الذي سبق أن أشار السلطان المظفر قطز بضرورة إرساله إلى مصر ، فرحب به بيبرس ترحيبا كبيرا ، وبويع بالخلافة بعد إثبات نسبه ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . وبذلك أعيدت الخلافة العباسية مرة أخرى بالقاهرة^(١) .

وبعد أن تمتبيعة الخليفة الجديد ، قلده الخليفة الحاكم بأمر الله السلطان الظاهر بيبرس حكم « البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وإقامة قسيمة في القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور »^(٢) .

ويبدو أن الظاهر بيبرس لم يعد يرغب بعد ذلك في إرسال الخليفة إلى بغداد ، وفضل إقامته بالقلعة بالقاهرة « عند حريمه وخدمه وغلما نه »^(٣) ليكون تحت أنظاره باستمرار ، ولا يستطيع الخروج عن الحدود

(١) المقرئى : السلوك ١ > ق ٢ ص ٤٧٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ١ > ص ١٠٢ .

(٢) المقرئى : الخطط ٢ > ض ٣٠٢ (طبعة بولاق) ، السلوك ١ > ق ٢

ص ٤٧٧ — ٤٧٩ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ٢ > ص ٦١ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ٢ > ص ١٠٤ .

المرسومة له (١) .

سلطات الخليفة العباسي

أما سلطات هذا الخليفة الجديد فلم تعتمد الأمور الدينية دون سواها (٢) خاصة ذكر اسمه في الخطبة على منابر مصر والبلاد التابعة لها، فيما عدا جامع السلطان بالقاهرة فيذكر اسم السلطان فقط في الخطبة . كذلك كان ينقش اسم الخليفة على السكة إلى جوار اسم السلطان ، ثم أسقط بعد ذلك اسم الخليفة من السكة وأبقى في الخطبة (٣) .

أما أهم أعماله فإنحصرت في تقليد السلطان الجديد سلطنته ، والقيام بزيارات التهنئة للأمراء والأعيان والكتّاب والقضاة ، وفي ذلك يقول المقريزي عمدة مؤرخي مصر في العصر المملوكي « وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسم وخمسين وسمائة فأقيم في تلك السنة خليفة في مصر ، قدم إليها من بغداد لقب المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وسار يريد

(1) Demonalynes : Muslim Institutions, P 111.

(2) Arnold : The caliphate ,P 99 — 103.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ٢٠ ص ٦١ .

سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ١٥٥ .

بغداد فحارب به القتار وقتلوه قبل أن تتم له سفنة منذ بومع بمصر . فصار من بعده ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ بل يتردد إلى أبواب الأمراء واعيان السكتاب والقضاء لتهنئتهم بالأعياد والشهور^(١) .

وكان يحدث في بعض الأحيان عندما يخشى السلطان من الخليفة أو يتسرب إليه الشك من ناحيته ، فإن السلطان لا يتردد في القبض على الخليفة وعزله وسجنه ، وتولية الخلافة لمن يشاء من أبناء البيت العباسي بمصر ، والذي تطمئن إليه خواطره^(٢) .

خلافة المستعين بالله

ومن الملاحظ عبر تاريخ الخلافة العباسية بمصر ، أنه لم يقول أى

(١) عن وظائف وسلطات الخليفة العباسي بمصر أنظر :

على إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣٨ — ٢٤٢ ،

Arnold : The Caliphate, P. 97 — 99,

Muir : The Caliphate, P. 593 — 595.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ص ٥٤١ ،

سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٥ .

خليفة عباسى بها أية سلطة سياسية أو حكم^(١) ، سوى ما حدث فى عام ٨١٥ م (١٤١٢ م) ، عندما « اسقل الإمام المستعين بالله خليفة العصر بأمر الخلافة : من السكاية على اليهود ومناشير الإقطاعات والتقاليد والتواقيع والمسكاتبات وغيرها ، وأفرد بالدعاء على المنابر وضرب اسمه على الدنانير والدراهم والطرز » ، ومعنى ذلك أن الخليفة المستعين تقلد حكم مصر بمفرده وأصبح فى يديه كل السلطات ، مما يجعل ذلك الحدث حدثاً غير عادى فى تاريخ مصر زمن المماليك .

وهذا الحدث الغير عادى يجعلنا نتساءل : هل شخصية الخليفة المستعين تختلف عن شخصية من سبقه من خلفاء ، الأمر الذى جعله قادراً على تحقيق قدر أو نوع من السلطة لم يحققه من سبقه من خلفاء ؟ ثم ماهى الظروف التى أحاطت بتولية المستعين حكم مصر ؟ وهل استقطاع المستعين

(١) يشير القلقشندى إلى حال الخلافة العباسية بمصر فيقول : « أن الذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك » (صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٣٧٥) .

أن يكبح جماح أمراء المماليك في مصر والشام ويقبض على زمام الأمور ويستقر في حكم البلاد ؟ .

في يوم الاثنين الرابع من شعبان عام ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) إستدعى السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ — ٨١٥ / ١٣٩٨ — ١٤١٢ م) سلطان الديار المصرية أبا الفضل الممباس بن الخليفة المتوكل على الله أبي عهد الله بن محمد « وبايمه بالخلافة بعد وفاة أبيه المذكور » فلقب بالمستعين بالله^(١) ، وأبى الشريف ، وإستقر بداره^(٢) . وقد وصف المستعين هذا بأنه كان « ديناً فيه خير وإحسان ولين ، حشماً وقوراً مهيباً »^(٣) .

ولم يكن متوقفاً أن يفتح الخليفة المستعين بسلطات أكثر من تلك التي كانت لأسلافه من قبل ، والتي تقررت منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس كما سبق أن أشرنا .

(١) تذكر بعض المصادر أنه تلقب بالمعتصم أنظر : ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ٤ ق ١ ص ١٤ ،

أبو المحاسن : النجوم ١٣ ج ٥ ص ٥١ .

(٣) ابن داود : نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٠٩ ،

المقرئزي : الخطوط ج ٢ ص ٢٤٢ .

غير أن حال الخليفة المستعين كان أصعب من حال من سبقه من الخلفاء ، وذلك لما وصف به السلطان فرج بن برقوق — سلطان الديار المصرية زمن خلافة المستعين — بأسوأ الأوصاف ، فيجعم المؤرخون على أنه كان « أشأم ملوك الإسلام ، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر وبلاد الشام ^(١) » .

الفتن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج

وامتلاً حكم الناصر فرج بالاضطرابات الداخلية ^(٢) ، حيث خرج عايمه كثير من أمرائه ببلاد الشام ، وكذلك داخل مصر نفسها ، عندما إخفى سبعين يوماً ، قضاها في لهو وطرب واكل وشرب وبسط وانشرح « في حين عهد الأمراء إلى أخيه المنصور عبد العزيز بأمر السلطنة وإجتماع حول عهد العزيز عدد كبير من المماليك والأمراء ، مما أدى إلى حدوث عدة اضطرابات وفتن عندما عاد الناصر فرج إلى السلطنة مرة أخرى ، وأخذ

(١) المقرئى : السلوك ، ح ٤ ق ١ ص ٣٢٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ح ١٣ ص ١٥١ ،

زيان : الأزمات الاقتصادية ص ٧٣ .

(٢) عن تدهور الأحوال الاقتصادية زمن الناصر فرج أنظر :

زيان : الأزمات الاقتصادية ص ٦٢ — ٧٥ .

يقعقب أمراء وممالك أخيه عبد العزيز بالقتل^(١)

غير أن الخطر الأكبر الذى تعرض له السلطان فرج بن برقوق جاء من جانب الأميرين « نوروز » نائب طرابلس^(٢) ، و « شيخ » نائب حلب ، اللذين خرجا على السلطان فرج وأخذا فى إقطاع البلاد لأتباعهما وفى الاستيلاء على مختلف الحصون والقلاع ببلاد الشام^(٣) .

وقد خشى السلطان الناصر فرج من أطماع كل من نوروز وشيخ ، لذلك قرر الخروج إلى بلاد الشام ومحاربتهم . فجهز مساكركه وحمل معه خزائنه وحريمه وخرج معه الخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسى والقضاة الأربعة ، ونزل بالريدانية فى أواخر عام ٨١٤هـ (١٤١٢م) ومنها توجه إلى غزه ، وبعد أن تجمع جيشه بغزه ، أخذ فى المسير صوب دمشق .

(١) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٢ ص ٢١٢ — ٢١٧ .
(٢) كان نوروز متزوجا من أخت السلطان الناصر فرج ، ونظرا للعداء والكرهية التى كانت فى قلب الناصر فرج تجاه نوروز ، أمر أخيه بالانفصال عن زوجها نوروز .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ١٢٠ — ١٢١ ،
العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ ،

ومما يذكر أن السلطان الناصر فرج كان كثير السكر ، شديد القهور ،
سفكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من عماليك والده ، مما جعلهم يفرون منه
ويلتجئون إلى عدويه نوروز وشيخ .

ولما توجه السلطان فرج إلى دمشق حيث كان نائبه بها الأمير تغرى بردى
والد المؤرخ جمال الدين أبي المحاسن^(١) — واستشاره فيما يفعله ، فنهاه
تغرى بردى عن القتال وأشار عليه بالعودة إلى القاهرة ، وبث الطمأنينة
في قلوب عساكره ومواليه الذين أصبحوا في خوف دائم ورعب شديد
من السلطان فرج .

غير أن السلطان فرج لم يأخذ بهذا الرأي ورفض العودة إلى القاهرة
إلا بعد إزال الهزيمة بكل من نوروز وشيخ . ويبدو أن السلطان الناصر
فرج كان واثقاً من قوته وتفوقه على نوروز وشيخ فقال عنهم لغرى بردى
« والله ما صفتهم قدامى إلا كالصيد المجروح »^(٢) .

(١) كان السلطان الناصر فرج متزوجاً من خوند فاطمة ابنة تغرى بردى
وأخت جمال الدين أبي المحاسن .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣ ص ١٣٨ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣ ص ١٣٩ .

وفي الجانب الآخر كان كل من نوروز وشيخ ، يخشيان من قوة جيش السلطان فرج ، لذلك حاولا عدم مواجهته وأخذا يتنقلان من مكان إلى آخر ، مما دفع السلطان فرج إلى تتبعهما بجيشه الكبير ، من بلد إلى آخر حتى وصلا إلى اللجون^(١) ، فتبعهم الناصر فرج في يوم الاثنين ثالث عشر المحرم عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) « وهو سكران لا يعقل »^(٢) .

وقد بلغ التعب والإعياء بجيش الناصر فرج حداً لا يوصف ، مما دفع كثيراً من أمرائه إلى حثه على عدم الدخول في المعركة إلا بعد إستراحه قصيرة يستعيد فيها جيشه قوته السابقة ، غير أن السلطان فرج أصر على الإسراع في الدخول في المعركة قبل هروب نوروز وشيخ إلى مكان آخر .

ولم تـمض ساعات قليلة من بدء المعركة إلا ولحقت الهزيمة بجيش الناصر فرج على عكس ما كان يتوقع ، وقتل عدد كبير من كبار أمرائه ، في حين إتجه الناصر فرج بعد هزيمته إلى دمشق^(٣) .

(١) بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً ، وإلى الرملة أربعون

ميلاً . أنظر : ياقوت : معجم البلدان - ٥ ص ١٣ - ١٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٤٠ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٤٠ - ١٤١ .

وثمة عدة حقائق يجب الإشارة إليها كانت سبباً في إنزال الهزيمة
بجيش الناصر فرج :

أولاً : سوء معاملة الناصر فرج لأمرائه ومماليكه ، الأمر الذي
أدى إلى انسحاب معظم هؤلاء الأمراء والمماليك من جيش الناصر فرج
وانضمامهم إلى جيش نوروز وشيخ .

ثانياً : عدم الأخذ بمشورة بعض الأمراء الموالين له ، تلك المشورة
التي كانت توصي بعدم الدخول في معارك ضد الأمراء الخارجيين عليه
والعودة إلى مصر ، وبث الطمأنينة في قلوب جنده وأمرائه حتى يعودوا إلى
ولائهم له .

ثالثاً : تسرع الناصر فرج في الدخول في المعركة قبل إستعادة جيشه
لقوته ، بعد التعب والإعياء الذي أصابه نتيجة السير المتواصل من
١٣ ذى الحجة عام ٨١٤ هـ منذ خروجه من الريدانية وحتى ١٣ محرم
عام ٨١٥ هـ عندما وصل إلى اللجون .

أما عن الجانب المنتصر وهو جانب نوروز وشيخ ، فقد وقع الخلاف
بينهما ، فأراد كل منهما أن يكون هو « الأمير الكبير » ، لذلك لم
يتفقا على من ستكون له الكلمة العليا . ويتضح لنا ذلك الخلاف عندما

أرادا كتابة رسالة إلى أمراء الديار المصرية ليعلموهم حقيقة الحال وهزيمة الناصر فرج ، فرفض كل منهما أن يتنازل للآخر بأن يكتب بإسمه ، فأشار عليهما كاتب السر فتح الله^(١) — وكان بصحبة جيش الناصر الذي خرج لمحاربة نوروز وبعد هزيمة الناصر فرج فضل الهقاء بجانب نوروز وشيخ — بأن يكتب كل منهما رساله بإسمه ويرسلها إلى الأمراء بمصر ، بالإضافة إلى أن يكتب الخليفة المستعين هو الآخر رسالة يشرح فيها ما أمسى عليه الحال من هزيمة الناصر فرج . وما يذكّر أن الأميرين نوروز وشيخ تحفظا على الخليفة العباسي المستعين بالله وبعض القضاء ورفضوا السماح لهم بالتوجه إلى دمشق والانضمام إلى جانب الناصر فرج^(٢) .

أما الناصر فرج فقد أخذ في الاستعداد لمواصلة القتال « واستدعى القضاء والأعيان ووعدهم بكل خير وحثهم على نصرته والقيام معه ، فانقادوا له ، وأخذ في تدبير أموره ، وتلاحة عساكره شيئا بعد

(١) هو فتح الله بن معتمد بن نفيس الأسرائيلي الدوايدي العناني التبريزي ، رئيس الأطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز عام ٧٥٩ هـ ، ثم صحبه أباه إلى القاهرة ، فتشابه في كفالة عمه ونظر في الطب ، وتولى رئاسته ثم تولى كتابة السرايا عام ٨٠١ هـ في سلطنة الظاهر برقوق . (وعن تفاصيل حياة وشخصية فتح الله أنظر :

المقريزي : الخطط ٣ ص ٦٢ طبعة بولاق) .

(٢) السخاوي : الذيل على رفع الاصر ، ص ٩١ .

شيء » ، وزاد من قوة الناصر فرج في تلك الفترة لاستيلائه على أموال وممالك الأمير تغرى بردى نائب دمشق بعد وفاته ، وقد أنفق الناصر فرج هذه الأموال على كل الجنود التي انضمت إليه خاصة التركمان ، وماقوى من شأنه . ولم يكف الناصر فرج بكل هذه الاستعدادات وإنما أخذ يمارس بعض الأساليب الدبلوماسية ، فأشار على قاضى القضاة جلال الدين الهلثينى وبقية قضاة مصر ودمشق الذين كانوا معه بدمشق ، وجماعة من أرباب الدولة ، على المناداة بأن السلطان أمر بإبطال المكوس وإزالة المظالم ، حتى يجذب إليه قلوب الشاميين ، وبالفعل جاءت هذه السياسة بنتائجها الطيبة « فعظم ميل الشاميين إليه — أى إلى الناصر فرج — وتمصّبوا له ، وصار غايمهم من حزبه ، وتغنّوا على لسانه :

« أنا سلطان ابن سلطان وأنت يا شيخ أمير^(١) » .

وهنا كان على نوروز وشيخ أن يعملوا بسرعة خشية لإجماع كافة الأمراء في جانب الناصر فرج وتعاطفهم معه بصفته السلطان وابن أستاذهم السلطان الظاهر برقوق ، في حين أنهما كانا متفرقين كل يعتبر نفسه الأمير الكبير .

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣ > ص ١٤٢ - ١٤٤ .

تقليد الخليفة المستعين السلطنة

وعندما فشل نوروز وشيخ في الوصول إلى حل لإنقاذ موقفهما السيء، استدعيا كاتب السر ففتح الله وسألاه المشورة فيما يعملاه ، ويروي المقرئى نقلًا عما ذكره له ففتح الله كاتب السر ، أن فتح الله قال لهما : « ما هكذا يقاتل السلطان » وذكر لهما ما هم فيه من الفرقة ، وعدم الإلتئاد إلى واحد منهما وإن كلا منهما يرى أنه الأمير الكبير ، وهذا أمر لابد فيه من إقامة واحد ترجع الأمور كلها إليه وتصدر عنه وأشار بأن « يقيموا الخليفة يتحدث ، وقوموا معه ، فإن أحداً لا يقبض عليه » . فقبل كل من نوروز وشيخ هذه المشورة دون تردد^(١) .

وهنا نقوقف برهة لنناقش الأسباب التي دفعت فتح الله كاتب السر إلى التمسك في تقليد الخليفة العباسى أمور البلاد ، وللأسباب التي من أجلها قبل كل من نوروز وشيخ ولاية الخليفة العباسى لأمر البلاد دون تردد .

لقد أحس فتح الله كاتب السر أن الأمور قاربت على الخروج من

(١) المقرئى : الخطط ، ٢ - ص ٦٢ ،

يد الأميرين نوروز وشيخ بعد إستعمادة السلطان الناصر فرج لقوته ، خاصة وأن كلا من نوروز وشيخ مختلفان ، فرأى — فتح الله — الاستعانة بالخليفة العباسى ، وذلك لما يتمم به الخليفة العباسى من تأثير على مختلف طوائف المجتمع بصفته خليفة المسلمين .

لذلك رأى فتح الله أن يصدر الخليفة فتوى شرعية يعلن فيها خلع السلطان الناصر فرج من السلطنة ويوضح فى تلك الفتوى أن الناصر فرج خرج عن الدين ووقع فى المحرمات ، وبذلك يضمن خروج كافة الأمراء والجنود على الناصر فرج والانفضاض من حوله نتيجة عدم شرعية حكمه ، وفى نفس الوقت يعلن على الملأ بأن الخليفة المستعين هو صاحب هذا الأمر وحاكم البلاد ، فلا يستطيع أحد الخروج عليه . وفى نفس الوقت يعيد الوثام بين كل من نوروز وشيخ ، بعدم تولية أحدهما فتار ثائرة الآخر . وقد قبل كل من نوروز وشيخ هذا الحل ، وذلك حلا مؤقتا لما ثار بينهما من خلاف حول أيهما سنبول إليه السلطنة^(١) ؟ واستراح الأثنان لهذا الحل ، حتى يستطيعا من وراء الخليفة أن يتمما هزيمة الناصر فرج ، ثم يستطيع

(١) أبو المحاسن : النجوم ، - ١٣ ص ١٩٣ .

القوى منهما أن يتخلص من الآخر ويقبض على زمام الأمور فيما بعد ،
خاصة وأن الخليفة كان لا يقيم بقوة عسكرية ضاربة - يستطيع بها منازلة
أحدهم إذا حاول أن يقصده عن عرش البلاد .

إذن كانت ولاية الخليفة المستعين للبلاد ولاية مؤقتة ، أراد بها
الأمراء المتصارعون أن تكون وسيلة للتخلص نهائيا من السلطان الناصر
فرج الميحصن بدمشق ، ثم سقاراً يستطيع من ورائه أحد هؤلاء الأمراء
تدبير مؤامراته للانفراد بحكم البلاد .

وقد فهم الخليفة المستعين كل هذه الأمور فهما كاملا ، خاصة وأنه
نشأ وتربى بمصر وشاهد وسمع بالمؤامرات والديسائس التي قام بها الأمراء
المماليك للقبض على الأمور ، وعلم علم اليقين أنه من المستحيل أن يترك
هؤلاء الأمراء حكم مصر والشام يخرج من أيديهم إلى أيدي الخلفاء ،
وعلم أيضا أن هذا الاجراء ما هو إلا حيلة للوصول إلى هدف معين هو في
النهاية الوصول إلى الحكم . لذلك رفض رفضا قاطعا ما عرضه عليه كاتب
السرفيتج الله من تولية حكم البلاد . ولكنه أجبر على القبول حينما أوقعوه
في خلاف شديد مع السلطان الناصر فرج حتى يقطعوا عليه طريق الرجعة

ويجملوه مضطرا لقبول ولاية البلاد وإصدار فتوى بخلع الناصر فرج^(١) .

وقبل أن نغضى في الحديث عن سياسة الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية ، نشير إلى أن ولاية الخليفة المستعين بالله العباسي للبلاد لم تكن هي أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون بالقاهرة لقوى حكم مصر زمن المماليك .

فتشير المصادر الفارسية إلى أن وصول الخليفة المستعين إلى كرسى الحكم بالديار المصرية لم تكن هي أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون لشغل منصب السلطنة ، وإنما حدث زمن والده الخليفة المتوكل وبالتحديد عام ٥٧٧٨ م (١٣٧٦ م) بعد هزيمة السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ — ٥٧٧٨ / ١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) بالعقبة وهروبه إلى جهة الديار المصرية أن اتفق الجميع « الأمراء وغيرهم وتوجهوا إلى الخليفة المتوكل على الله وكان أيضا في صحبة السلطان الملك الأشرف وقالوا له : يا أمير المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك » فامتنع الخليفة المتوكل عن قبول السلطنة^(٢) .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٥ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨ .

Muir : The Mameluke, P 129.

=

(٢) ابن خلدون : المعبر ، ج ٥ ص ٤٦٥ ،

وإذا كان الخليفة المتوكل رفض قبول السلطنة التي عرضت عليه عقب هزيمة الأشرف ، إلا أنه وبعد مملكة الظاهر برقوق (عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م) فكر جدياً في الإطاحه بحكم برقوق وأن يتقلد هو حكم البلاد. فيحكي المؤرخون أنه في عام ٨٧٨٥ / ١٣٨٣ م وصل إلى مسامع السلطان الظاهر برقوق أن الخليفة المتوكل على الله اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركمانى المعزول وإبراهيم العلانى ، وجمع جماعة من الأكراد والتركمان وهم نحو من ثمانمائة فارس ، واتفقوا على الوثوب على السلطان برقوق عندما يقوم باللعب بالسكره ويتقلونه « ويمكنون الخليفة من الأمر والاستعداد بالملك ^(١) » . ولم يلبث أن استدعى السلطان الظاهر برقوق الخليفة الذى انسكر ما نسب إليه ، أما الأميران قرط وإبراهيم

== المقرئى : السلوك - ٣ ق ٩ ص ٢٨٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ١١ ص ٧٨ — ٧٩ ،

السيوطى : حسن المجاهرة ، ٢ ص ١١٩ .

(١) يرى بعض الباحثين أن الضغط والتضييق الذى لقيه خلفاء العصر المملوكى الأول كان سبباً فى محاولة خلفاء العصر المملوكى الثانى للوثوب والتأمر على سلاطين المماليك .

انظر : إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسه ص ٥٣ .

فقد اعترفوا بتفاصيل هذه الحادثة ، فموقف الجميع ، وتم سجن الخليفة بإحدى سجون القلعة^(١) .

وإذا كان الخليفة المتوكل قد أعيد بعد فترة إلى الخلافة ، وشهد وفاة برقوق (عام ٨٠١ / ١٣٩٨ م) ، وعرض عليه الأمراء ملك مصر بعد زوال دولة برقوق ، فإنه « تبرم من الدخول في الملك وأشار بإعادة حاجي خليفة^(٢) » . ويبدو أن المتوكل بعد هذه المدة الطويلة التي قضها وراء كواليس الحكم خلف السلاطين والأمراء وماشاهده من تكالب الأمراء على السلطنة والمؤامرات والدسائس التي يقومون بها من أجل الوصول إلى مصالحهم الخاصة ، وإيمانه القام بأنه لن يستطيع أحد الأفراد

(١) المقرئى : السلوك > ٣ ق ١ ص ٢٨٠ ،

أبو المحاسن : النجوم ، > ١١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ،

السيوطى : حسن المحاضرة > ٢ ص ٨٥ .

يشير ابن خلدون إلى سبب طريف أدى إلى فشل حركة الخليفة المتوكل فيقول : « أنه - أى الخليفة - داخل في ذلك بعض ضعاف العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له » .

(العبر > ٥ ص ٤٧٥) .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، > ٢ ص ٨٥ .

أن يقوم بهام الحكم إلا إذا ساندته جنود أقوياء من أمراء ومماليك . لذلك
رفض قبول السلطنة والملك عندما عرضت عليه عقب زوال دولة برقوق كما
سبق أن ذكرنا .

ويبدو أن الخليفة المستعين بن الخليفة المتوكل قد شعر بنفس شعور
والده ، لذلك أصر على عدم قبول السلطنة عندما عرضت عليه كما سبق أن
أشرنا ، لكنه أجبر على قبولها^(١) .

وبقبول الخليفة المستعين السلطنة « فرح الأمراء بذلك وبابسود بأجمعهم ،
وقبلوا يده ، وحلفوا له على الطاعة والوفاء بالإيمان المخلصة التي لا يمكن
التوريط فيها » ووقف معظم الأمراء بين يدي الخليفة العباسي على مراتبهم
يؤدون إلية الخدمة وقبلوا بين يديه الأرض كما كانوا يفعلون من قبل مع
سلاطين المماليك^(٢) .

(1) Muir : The Mameluke. P 130 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٨٧ - ١٩٠ ،
من الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين عد المستعين من جملة السلاطين بالديار
المصرية والبعض الآخر عدة من جملة الخلفاء .
أنظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ص ١ ص ٣٥٧ .

وقد أثمرت السياسة التي اتبعتها كل من نوروز وشيخ في تفصيل
الخليفة المستعصم كما على البلاد والفقوى الشرعية بخلع السلطان الناصر
فرج ، أثمرت هذه السياسة ثمارها ، فانقسم الأمراء والجنود المواليون
لناصر فرج إلى قسمين :

(١) قسم يرى أن مخالفة السلطان الناصر كفر ، لأن الناصر عزل
عن السلطنة ، ومن قاتل معه فقد عصى الله ورسوله .

(ب) قسم آخر يرى أن القتال مع السلطان الناصر واجب وأنه باق
في السلطنة ، ومن قاتله إنما هو باغ عليه وخارج عن طاعته ^(١) .

غير أن أنصار الفريق الأول كانوا أكثر بكثير من أنصار الفريق
الثاني ، مما أدى إلى أن « أخذ أمر الملك الناصر في أدبار » ، وانحلت أهل
دمشق عن الملك الناصر وخافوا عاقبة مخالفة أمير المؤمنين في الدنيا
والآخرة . وقرر جمال الدين أبو الحاسن وغيره من المؤرخين إلى أنه
« لولا الخليفة ما انتظم لهم أمر — أي نوروز وشيخ — لعظم ميل
التركمان والممالة للملك الناصر ^(٢) » .

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣ ص ١٤٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣ ص ١٤٨ ، ١٩٣ - ١٩٤ ،

العيشى : السيف المبتد ، ص ٢٥٩ .

ولكن حدث في تلك الأثناء أن وصلت جموع التركان بجدة للسلطان
الناصر ، مما قوى من شأنه ، وأوقع في قلوب نوروز وشيخ وبقية الأمراء ،
مما دفعهم إلى الاجتماع وإعادة تقرير ولاية الخليفة عليهم حتى يقفوا جميعاً
موقفاً واحداً من وراء هذا الخليفة ، وتشجيعاً للخليفة وحثه على الثبات
« حلفوا بأجمعهم يمينا مغلظاً للأمير المؤمنين بأنهم يلزمون طاعته ، ويأترون
بأمره ، وأنهم رضوا بأنه الحاكم عليهم ، وأنه يستبد بالأمور من غير
مراجعة أحد ، وأنهم لا يسلطون أحداً غيره طول حياته » (١) . ومن
القسم السابق يبدو لنا أن الخليفة بدأ يتراجع في موقفه نتيجة علمه اليقين
أن هؤلاء الأمراء لم يخفأوه كما كان عليهم إلا لفترة مؤقتة وحتى تهدأ
الأمور ثم يقومون بمزله وتنصيب الأمير القوى ، لذلك أقسموا له بأنهم
« لا يسلطون أحداً غيره طول حياته » تطميناً له .

ولم يكن أمام الخليفة المستعين إلا طاعة هؤلاء الأمراء ، ومن ثم قبل
هذه الوظيفة المؤقتة .

وأشار الأمراء على الخليفة المستعين بأن يكتب إلى أهل الديار المصرية
يخبرهم بخلع السلطان الناصر فرج وخروجه على الدين ويعلمهم بنباؤة توليته

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٣ ص ١٩٣ ،

هرش البلاد^(١) ، كما ضمن كتابه إزالة المكوس والمظالم من سائر
الأهال^(٢) ، كما أشاروا أيضاً بأن يكتب الخليفة والقضاة محضراً يحكمون
بمقتضاه بإراقة دم السلطان الناصر فرج لكونه خارجاً عن الدين^(٣) .

وننتج من ذلك أن انفصل عن السلطان الناصر فرج عدد كبير من
إمرائه واتباعه ، مما أدى إلى ضعف موقفه ، بينما اشتد نوروز وشيخ في
محاصرة دمشق ، الأمر الذي دفع السلطان الناصر إلى الانسحاب إلى قلعة
دمشق والتحصن بها ، فما كان من نوروز وشيخ إلا أن شددوا الحصار على

(١) ذكر القلقشندي نص رسالة أرسلها أمراء الديار المصرية إلى الخليفة
المستعين بعد هزيمة الناصر فرج ، ردّاً على رسالة الخليفة المستعين لهم . (أنظر نص
هذه الرسالة في كتاب صبيح الأعشى ج ٨ ص ٣٧٩ — ٣٨٠) .

(٢) وقد أصدر الخليفة المستعين قراراً بعزل جلال الدين البلقيني عن قضاء
الشافعية وذلك لأن البلقيني كان في صحبة الناصر فرج ومقيم معه بدمشق وقد أثار
البلقيني هذا العزل ، وبعد أن تصافى مع المؤيد شيخ عمل جاهداً على الإطاحة
بخلافة المستعين ، أنظر :

أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٩٢ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ١٩٣ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٦ .

قلعة دمشق ، وفي تلك الأثناء تسرب معظم جنود وأمراء الناصر فرج وانضموا إلى جانب الخليفة المستعين ونوروز وشيخ^(١) . وأخيرا اضطر الناصر فرج إلى النزول من قلعة دمشق وتسليم نفسه إلى الأمير شيخ . فاجتمع الخليفة بالأمراء والفقهاء والعلماء المصريين والشاميين وقرروا جميعا مراقبة دم الملك الناصر فرج ، ونفذ حكم الإعدام في شخص الناصر فرج في ليلة السبت السادس عشر من صفر عام ٨١٥ هـ ، على الرغم من معارضة الأمير شيخ في قتل الناصر فرج^(٢) .

وإذا كان الخوف من السلطان الناصر فرج هو الذي دفع كبار الأمراء ومن بينهم نوروز وشيخ إلى المناداة بسلطة الخليفة المستعين ، فإن التخلص من السلطان الناصر هلى النحو السابق أزال ذلك الخوف ، ولـكن الأمور لم تهدأ بعد ، إذ ظل الخلاف بين كل من نوروز وشيخ قائما ، فـكل منهما يريد أن ينتهز الفرصة للانقضاض على السلطنة « والناس يترقبون وقوع الفتنة » ، ونتيجة تخوف الأمراء من بعضهم البعض أبقى على وجود الخليفة

(١) ساعد على ذلك الامان الذى أصدره الخليفة المستعين لكل الموالين للناصر فرج وهو « من حضر إلى أمير المؤمنين خليفة سيد المرسلين فهو آمن » .

أنظر : السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) يبدو أن السبب الذى دفع شيخ في معارضة سفك دم الناصر فرج هو أنه أراد استغلاله فيما بعد لتهديد نوروز إذا حاول الانفراد بالحكم .

العباسي بالسلطنة واتفق كل من نوروز وشيخ على أن يسيرا إلى مصر
صحبة الخليفة المستعين بالله ويكونا في خدمته ، فيكون الأمير شيخ أميرا
كبيرا ويشغل وظيفة أتابك العسكر بالديار المصرية ، ويقول نوروز رأس
نوبة الأمراء ، على أن يكون اقطاع كل منهما بالتساوي .

وأثناء وجود الخليفة بدمشق بعد التخلص من السلطان الفاصر فرج
كان نوروز وشيخ يجلسان إلى جواره ، فيجلس شيخ عن يمينه بينما يجلس
نوروز عن يساره .

وأخيرا اتفق الأميران الكبيران — نوروز وشيخ — على أن يستقر
نوروز بالشام وفوض له الخليفة المستعين « كفالة الشام جميعه : دمشق
وحلب وطرابلس وحمص وصيد وغازه ، وجعل له أن يعين الأموريات
والأقطاعات لمن يريد ، وأن يولى نواب القلاع الشامية والسواحل وغيرها
لمن أراد من غير مراجعة في ذلك ، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقر به في
شيء من ذلك ليجهز اليه تشريفا » . وهكذا خرج حكم بلاد الشام عن يد
الخليفة « السلطان » المستعين ، وأصبح في يد نوروز . ولم يعد للخليفة أي
حق سوى تشريفه بمنح الخلع الشريفة والعقائد لمن يختاره ويقره نوروز في
حكم مختلف بلاد وقرى الشام . في حين استقر الرأي على أن يتوجه الأمير
شيخ إلى مصر صحبة الخليفة ، ويكون أتابك المساكر بها (١) .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٢٠٠ — ٢٠١ ،

وهكذا اقتسم الأميران الكبيران حكم البلاد، فكان الشام من نصيب نوروز في حين كانت مصر من نصيب شيخ، لكن إذا كان نوروز قد قنع ببلاد الشام، فإنه أخذ يمارس فيها سلطاته بدون منازع حيث لا يوجد بها سلطان ولا خليفة، أما بالنسبة للأمير شيخ، فإن الديار المصرية كانت هي مقر الحكم والسلطان، لذلك كان على شيخ أن يعمل إذا أراد أن ينفرد هو الآخر بحكم الديار المصرية، أن يعمل على تقويض نفوذ الخليفة المماليكي سلطان البلاد.

وأخذ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجنود في الاستعداد للعودة إلى الديار المصرية، وأرسل إلى أهل الديار المصرية يعلمهم بقرب وصوله، كما أصدر أمراً بإطلاق سراح الأمراء المسجونين بالاسكندرية.

وفي ظاهر الأمر بدا الخليفة وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة، إذ أخذت رسائله وكتبه تخرج وفي مقدمتها هذه العبارة : من عبد الله ووليه الامام المستعين بالله، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفترض طاعته على الخلق أجمعين، أمر الله ببقائه الدين «^(١)» كما ضربت

== ابن اياس : بدائع الزهور، ج ١ ص ٣٥٨.

Muir : The Mameluke, p 130.

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١،

أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٢٠١،

السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦.

السكة بإسمه وحده ، ودعى له بمفرده على المنابر ، كما كانت علامته سارية على التقليد والتوقيع والمكاتبات ^(١) .

وفي يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بدأ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجند في المسير جنوبا تجاه مصر .

ومن الجدير بالذكر أن أهل الديار المصرية فرحوا فرحا زائدا بتولية الخليفة المستعين حكم الديار المصرية ، ظنا منهم أنهم بذلك قد تخلصوا نهائيا من حكم المماليك بحرية كانوا أم جراكسة ، وخرجوا جميعا لإستقبال الخليفة المستعين ، وتلقاه « الناس » بقطيا والصالحية وبليبس » وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه » ، كما كتبت عدة قصائد في مدح المستعين والخلفاء منها ^(٢) :

(١) وهذا على العكس من حال وسلطات الخليفة المستعين قبل توليه السلطنة ، إذ كان مفقود السلطة مثله مثل من سبقه من الخلفاء ليس له سوى العهد إلى السلطان بالحكم والدعاء له على المنابر قبل السلطان .

(أنظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٦٣) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٨٦ .

الملك أصبح ثابت الأساس
بالمستعدين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم المصطفى
لحلها من بعد طول تناس

الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية

وبوصول الخليفة المستعين العباسي إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء
الثاني من شهر ربيع الآخر عام ٨١٥ هـ ، تبدأ مرحلة ثانية من مراحل
حكمه ، فإذا كانت الفقرة الممتدة منذ ولايته الحكم أثناء محاربة الناصر
فرج وحتى رحيله إلى الديار المصرية في يوم السبت الثامن عشر من شهر
ربيع الأول عام ٨١٥ هـ تمثل المرحلة الأولى من حكمه ، والتي حرص أئمتها
كافة الأمراء على حفظ شخصيته وهيئته ، وحرصوا أيضا على عدم المساس
به والظواهر بإحقرامه والقيام بالخدمة بين يديه ، وإطاعة أوامره . ويعود
ذلك كله إلى الظروف التي أحاطت بالأميرين الكبيرين نوروز وشيخ ،
وصراعهما ضد السلطان الناصر فرج ، ثم تخوفهما من بعضهما البعض .

أما وبعد التخلص من الناصر فرج واتفاقهما على تقسيم البلاد فيما بينهما
وأن يكون نوروز بالشام وشيخ بمصر ، بدأ الأمر يختلف في علاقاتهما مع

الخلافة العباسي المستعين فقد أحس كلاهما أنه في غير حاجة للخلافة العباسي، وأخذ كل منهما يعمل لتوطيد نفوذه ومركزه. ولما كان الأمير نوروز قد انفرد بحكم بلاد الشام وأصبح من حقه حكم بلاد الشام حكماً كاملاً لا يراجع الخلافة فيه إلا « بن يستقر في شيء » ليجهز — أي الخلافة إليه تشريفاً ، فإن الأمر اختلف بالنسبة لوضع الأمير شيخ بمصر الذي كان بجواره الخلافة . وكان على الأمير شيخ هو الآخر أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الأفراد بالحكم .

وبعد وصول الخلافة المستعين إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الثاني عام ٨١٥ هـ ، شق الخلافة القاهرة وصعد إلى القلعة ونزل بالقصر « على عادة السلاطين » ويبدو أن الأمير شيخ كان يتوقع أن الخلافة لن يذهب إلى القصر وإنما سيتوجه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسي . ومن ثم بدأ يحس بعدم ارتياح لقصر الخلافة وبدأ يشك في أمره ، ولذلك فكر في العمل بسرعة من أجل الحد من نفوذ الخلافة حتى لا يقوى شأنه ويمثل خطراً يهدد الأمير شيخ نفسه .

لذلك أمر الأمير شيخ كافة الأمراء وأرباب الدولة ألا يصعدوا إلى الخلافة وإنما يترددوا على باب السلسلة حيث كان يقيم الأمير شيخ ، وأبطل الموكب السلطانية التي كانت تقام عادة للسلاطين ، وقبض على الأمراء

الذين شك في أخلاصهم له ، وأخذ في القضييق على الخليفة المستعين ومنعه من مباشرة مهامه في القولية والعزل ، ومارس على الخليفة نوعاً من الضغط من أجل تقليد جميع أمور البلاد المصرية ، وأخيراً وبعد أن خشي الخليفة المستعين من عائلة الأمير شيخ ، رضخ لكل مطالبة ، وفي الموكب الكبير الذي عقد بالقصر السلطاني وحضره الأمير شيخ وسائر الأمراء « خلع الخليفة على الأمير شيخ بإستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية ٥٠٠ وأنه يولى ويعزل من غير مراجعة » .

وبمقتضى هذا التقليد الذي منحه الخليفة للأمير شيخ ، خرج الحكم عن يد الخليفة إلى يد الأمير شيخ ، الذي أخذ يمارس سلطاته وتلقب بلقب « نظام الملك^(١) » .

ولم يانح الأمير شيخ بما حصل عليه ، وإنما أقام الأمير جقمق الأرغون شادى دواداراً للخليفة ، وكان جقمق هذا تابعاً مخلصاً للأمير شيخ ، وبذلك ضمن شيخ عدم تصرف الخليفة في أى أمر إلا بعد علمه به عن طريق جقمق الدوادار^(٢) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، > ٢ ص ٨٩ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٠٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، > ١٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وعلى هذا النحو قبض الأمير شيخ على كافة الأمور وصار للخليفة على رأى جمال الدين أبى المحاسن « الإسم فى السلطنة لاغير ، وماعدا ذلك متعلق بالأمير شيخ^(١) » .

وإذا كان الأمير شيخ قد استطاع التغلب فى سهولة على الخليفة العباسى ويستولى على كل السلطات ، فإن عدوه الأول كان مقيماً بالشام وهو الأمير نوروز ، الذى أخذ يرقب تطورات الموقف فى مصر فى قلق بالغ ، وقد اعتمد نوروز على أحد الأمراء الكبار المقيمين بمصر ، وهو الأمير بكتمر جلق ، فى الحد من نفوذ الأمير شيخ ، وكان الأمير نفسه يخشى من بكتمر جلق ، لكن حدث فى شهر جمادى الآخرة عام ٨١٥ هـ أن توفى الأمير بكتمر جلق ، مما أتاح الفرصة للأمير شيخ لتنفيذ بقية مخططاته فى الوصول إلى عرش البلاد .

(١) أبو المحاسن : النجوم ١٣ ص ٢٠٦ .

ويشير ابن لياس إلى أن الخليفة المستعين كان فى مدة سلطنته مع الأتابكي شيخ فى غاية الضئيل ليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط والأمر كله للتابكى شيخ (بدائع الزهور ١ ص ٢٥٨) .

خلع الخليفة المستعين من السلطنة

وبعد أقل من شهرين من وفاة الأمير بكتمر جاقو جمع الأمير شيخ أمراء الديار المصرية وحدثهم في أمر السلطنة ، فوافقوا على سلطنته^(١) . ومن طريق ما يذكر أنه وأثناء انعقاد الموكب على عادته بالأسطبل السلطاني عند الأمير شيخ ، اجتمع القضاة الأربعة ومعهم فتح الله كاتب السر الذي قال لهم : « أن الأحوال ضائمه ولم يعهد أهل نواحي مصر اسم خليفة ، ولا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سلطان على العادة^(٢) » .

فاستقر رأى الجميع على سلطنة الأمير شيخ و « خلع الخليفة المستعين بالله العباسي من السلطنة » في يوم الاثنين أول شعبان عام ٨١٥ هـ^(٣) .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) يشير ابن إياس إلى أن المؤيد شيخ جمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة وكثر الفساد في البر والبحر واضطربت الأحوال وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركي له سطوة يجمع أهل الفساد وتنصاح الأحوال على يده . انظر : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،

ومن الجدير بالذكر أن فتح الله كاتب السر هذا ، كان هو صاحب فكرة سلطنة الخليفة المستعين^(١) ١١ .

وعندما صعد الأمراء إلى الخليفة ليعلموه صورة الحال يأخذوا موافقته على بومة السلطان شيخ الذي تلقب بالمؤيد ، تردد كثيرا ثم وافق بشرط أن ينزل من القلعة ويستقر بداره ، وكأنه خشى على نفسه من إغتيال شيخ له ، غير أن شيخ استبقاه بالقلعة تحت يده^(٢) ، إلى أن تسعقر له الأمور ، وحتى لا يشكل الخليفة المستعين له أى خطر^(٣) .

ثم قرر السلطان المؤيد شيخ بعد ذلك خام الخليفة المستعين من الخلافة وولى مكانه أخاه داود الذي تلقب بالمعتضد^(٤) .

= أبو المحاسن : النجوم ١٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ص ٢ ص ٣ .

(١) المقرئى : الخطط ص ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،

العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٣١١ .

(٢) العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٣١٤ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ص ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، ص ٢ ص ٨٩ .

(٤) المقرئى : السلوك ص ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٢١ .

وجدير بالذكر أن الأمير نوروز بالشام لم يعترف بشرعية سلطنة المؤيد شيخ ، وإستمر متمسكا بشرعية حكم الخليفة المستعين ، وإستمر يخطب له على المنابر بدمشق كما كانت العملة تسك باسمه ، وذلك نتيجة تخوفه الشديد من سطوة الأمير شيخ^(١) وأخذ نوروز يعد العدة لمحاربة شيخ ، غير أن نوروز لم يلبث أن قتل عام ٨١٧هـ (١٤١٤م) دون أن يحقق شيئا مما أراد^(٢) .

ومن المفيد أن نذكر أنه لو تحقق انتصار الأمير نوروز على شيخ ، لما استبقى الخليفة العباسي في الحكم ، ولفعل به مثلما فعل المؤيد شيخ !! .

وهكذا تنتهي تلك الصفحة من صفحات تاريخ الخلافة العباسية

== ومن الطريف أن الذي ساعد الأمير شيخ على عزل الخليفة المستعين من الخلافة هو القاضي جلال الدين البلقيني الذي رتب دعوى شرعية حكم بمقتضاها بخلع المستعين من الخلافة ، والواقع أن البلقيني إنما أراد الانتقام من الخليفة المستعين الذي سبق وأن عزله عن قضاء الشافعية عقب تولية الحكم عام ٨١٥هـ .

(انظر : حسن المحاضرة ص ٢٥ ، ٨٦ ، ٨٩ - ٩٠ ، ابن إياس : بدائع

الزهور : ١ ص ٣٥٨) .

(١) المقرئ : السلوك ص ٤٤ ق ١ ص ٢٥٥ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٢٦ .

(٢) البيني : السيف المهند ص ٣١٣ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ص ٢٥ ص ٣ .

بالقاهرة في ظل حكم المماليك ، الذين اتخذوا من الخلافة والخليفة سقاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية في الوصول إلى مراكز الحكم والسلطان^(١) .
في حين أن الديار المصرية ذاتها استفادت كثيراً من وجود الخلافة الفيلسوفية بها ولا أدل على ذلك من تمريح السيوطي وهو أحد مؤرخي وعلماء مصر في العصر المملوكي بقوله : « واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعالت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رجال الفضلاء ، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الايمان والكتاب^(٢) » .

(1) Demombynes : Muslim Institutions, P 112 .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٩٢ .

المصادر والمراجع

- إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة
القاهرة ١٩٦٠ .
- ابن أبي الفضايل : (المفضل ت ٩٧٢ هـ) المنهج السديد والذريعة القويده
فيما بعد تاريخ ابن العميد باريس ١٩٤٠ .
- ابن إلياس : (أبو البركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ) بدائع
الزهور بولاق ١٨٨٦ .
- ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ) تاريخ ابن خلدون
أو المعبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٩٧١ .
- ابن داود : (علي بن داود الصيرفي ت ٩٠٠ هـ) نزهة النفوس
والأبدان القاهرة ١٩٧١ .
- ابن شاكر : (فخر الدين محمد أحمد السكتي ت ٧٦٤ هـ) فوات
الوفيات القاهرة ١٩٥١ .
- ابن طباطبنا : (محمد بن علي ت ٨٠٩ هـ) الفخري في الآداب السلطانية
القاهرة ١٩٢٧ .

- أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل ٥٧٣٢) المختصر في أخبار البشر
القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغري بردى ت ٨٧٤ هـ) النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة القاهرة ١٩٧٢ .
- أرنولد : Arnold(thomas): The Calipate
oxford, 1924
- ديمومبينز : Demombynes (Maurice): Muslim Institutions, :
London, 1968.
- زيان : الأزمات الاقتصادية والأويته في مصر عصر سلاطين
المماليك القاهرة ١٩٧٦ .
- السخاوى : (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠١ هـ) الذيل على
رفع الإصر القاهرة ١٩٦٦ .
- سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٢ .
- السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن ٩١١ هـ) حسن المحاضرة فى
تاريخ مصر والقاهرة القاهرة ١٣٨٧ هـ
- تاريخ الخلفاء دمشق ١٩٣٢ م
- على إبراهيم حسن : دراسات فى عصر المماليك البحرية
القاهرة ١٩٤٨ .
- العيني : (بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ) السيف المهند فى سيرة
الملك المؤيد القاهرة ١٩٦٧

- القلقشندي : (أبو العباس أحمد ت ٨٢١ هـ) صبح الأعشى في صناعة
الانشا طبعة دار المكتب المصرية

- المقرئزي : (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) السلوك لمعرفة
دول الملوك القاهرة ١٩٧٠

الواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار

بولاقي ١٢٧٠ هـ .

- ميور : Muir (William) : The Caliphate its rise and fall :
oxford, 1891.

- ياقوت : (شهاب الدين أبي عبد الله ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان
بيروت ١٩٦٨ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
سقوط الخلافة العباسية ببغداد	٩
الظاهر بيبرس واحياء الخلافة العباسية بالقاهرة	١٨
سلطات الخليفة العباسى	٢٦
خلافة المستعين بالله	٢٧
الفقن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج	٣٠
تقليد الخليفة المستعين السلطنة	٣٧
الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين	٥١
سلطان الديار المصرية	
خلع الخليفة المستعين من السلطنة	٥٥
المصادر والمراجع	٥٩

رقم الايداع بدار الكتب
٢٥٩١ / ١٩٧٨ م
الترقيم الدولي ٤ - ٤١ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

منبعة دار نشر الثقافة
٤١ شارع الامين مسوق - القاهرة
٩١٦٠٧٦

02

غار
ص

To: www.al-mostafa.com